دراسات الأدب المعاصر، السنة التاسعة، ربيع ۱۳۹۶، العدد الثالث والثلاثون: صص ۳۵- ۵۸

أزمات المرأة فی روایة «زقاق المدق» علی أساس علم اجتماع المحتوی

فاطمه قادری *

فاطمه جمشیدی **

تاریخ الوصول: ۹۵/۹/۱۳

تاریخ القبول: ۹۵/۱۲/۱۴

الملخّص

إنّ الأدب یعکس علاقات الإنسان بالآخرین وبنفسه، کما یکشف عن تصویر الواقع الذی یحیط به؛ لذلک یشعر الإنسان بحاجة إلی فهم الأعمال الأدبیة وتحلیل مضامینها. إنّ علم اجتماع المحتوی کإحدی مناهج النقد الاجتماعی للأدب یهتمّ بدراسة محتوی الآثار الأدبیة. فقد درست هذه المقالة مضامین روایة «زقاق المدق» خلالَ الأزمات الاجتماعیّة الموجودة فی شخصیّة «حمیدة» کالشخصیّة الرئیسیة عبر منهج الوصفی التحلیلی لمحتوی الروایة. فهناک فی بدایة الأمر تحدید العلاقة بین الاجتماع والأدب والتعریف بمنهج علم اجتماع المحتوی ثم أُستُشهِدَ بالأزمات الاجتماعیّة فی حیاة «حمیدة».

الکلمات الدلیلیة: علم اجتماع المحتوی، الروایة المصریة، نجیب محفوظ، زقاق المدق.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* عضو هیئة التدریس فی قسم اللغة العربیة وآدابها بجامعة یزد، یزد، ایران(أستاذة مشارکة). mf.ghaderi@gmail.com

** طالبة الدکتوراه فی فرع اللغة العربیة وآدابها بجامعة یزد، یزد، ایران. f.jamshidi1364@gmail.com

الکاتبة المسئولة: فاطمه جمشیدی

المقدمة

يدور علم اجتماع المحتوى حول انعكاس مضامين الاجتماعية فی الآثار الأدبية ومدى التزام الأدباء بهذا الأمر وهذا يربط بمدى التزام الأديب بالقضايا الاجتماعية فی آثاره؛ فالتزام الأديب يعنی وجوب مشاركته بالفكر والشّعور والفنّ فی القضايا الوطنية والإنسانية، وفيما يعانی الآخرون مِن آلام ويبنون مِن آمال(هلال، ١٩٩٧م: ۴۵۶)؛ وقد حاول كثيرٌ مِن الأدباء التوفيق بين الاهتمام بانعكاس المضامين الاجتماعيّة والالتزام بها وبين الاهتمام بمقتضيات العمل الأدبی(صابر، ١٩٩٠م: ٢٠۴). فإنّهم يصوغون مقولة الأدب بوصفه انعكاساً نمطياً للمجتمع وقضاياه الاجتماعية، ويری *سارتر* أنّ الكاتب الالتزامی يدرک أنّ «الكلام عملٌ» والمضمون قبلَ كلِّ شیءٍ هو بُغيةُ الكاتب، ومقصدُه ثمّ يأتی بعده استخدام الأسلوب والصياغة ولكن على الكاتب أن يحذر سبقَ الأسلوبِ الموضوعَ والمضمونَ(صابر، ١٩٩٠م: ٢٠٨ - ٢١۶).

فكلُّ هذا هو ما حرّضنا على دراسة هذا الموضوع فی مقالتنا هذه. هدفت الدراسةُ الحاليةُ إلى تتبع أنواع الصراع المختلفة التی تعانی منها المرأة المصرية متكئةً على شخصيّة «حميدة» فی رواية «زقاق المدق»، وكيفية تناول هذه الرّواية لأزمات الأدوار عند المرأة المصرية آنذاک، ومدى مطابقتها للواقع والحقيقة الاجتماعيّة كما حاولت أيضاً التعرُّف على أوضاع المجتمع المصری والتغيُّرات التی طرأت عليه فی فترة موضوع الدراسة فی بعض المجالات الاجتماعيّة؛ وكلُّ هذه الأمور تتحقّقُ على أساس علم اجتماع المحتوى.

فبما أنّ هذه الأزمات توجد فی العالم العربی فی الزمن الراهن، فمن الضروری أن ندرس مثل هذه الرّوايات التی تطرّقت إلى موضوع النساء عامّةً والفتيات خاصّة حتّى يلفت علماءُ الاجتماع أنظارَهم إليها ليُدلوا بآرائهم فی حل مشاكلهنّ الروحية. للوصول إلى هذا الهدف قامت المقالةُ بتبيين النقد الاجتماعی كإحدى فروع النقد الأدبی ثمّ ألقت نظرةً عابرةً على النقد الاجتماعی وعلم اجتماع الأدبِ، ثمّ تطرّقت إلى علم اجتماع المحتوى وأهدافه؛ وبعد ذلک درست الأزمات الاجتماعيّة الموجودة فی حياة «حميدة» فی الرّواية المدروسة عبر المنهج الوصفی التحليلی للفحص عن الأزمات الاجتماعيّة التی غلبت على حياة هذه الفتاة حتّى تُجيبَ عن الأسئلة التالية:

۱) ما هو دور علم اجتماع المحتوی فی الکشف عن المعضلات الموجودة فـی مجتمـع مصر أثناء الحرب العالمیة الثانیة مِن خلال روایة زقاق المدق؟

۲) کیف تبرَّرُ أهمیّة هذه الروایة من منظور دراسات علم اجتماع المحتوی؟

۳) کیف استخدم *نجیب محفوظ* شخصیّة «حمیدة» رمزاً للمجتمع المصری بمـا فیـه من المعضلات الاجتماعیة؟

وممّا یجدر بالذّکر أنّه استهَدفَ هذا البحثُ إلی ما یقدّمه علـم اجتمـاع المحتـوی مـن الفوائد فی مجال فهم الآثار الأدبیة حیث یکاد یکون دراسة الأدب من هذا المنظور أقـرب المناهج إلی طبیعة الفکر الإنسانی والثقافة البشریة، وأکثر التصاقاً بالواقع الاجتماعی وعلی هذا الأساس تکون دراسةُ هذه الروایة وفقَ المنهج المذکور أمراً ضروریّاً.

خلفیة البحث

أبرز ما رکّز علی *نجیب محفوظ* من البحوث هی «الرمزیة فـی أدب نجیـب محفـوظ» *لجواد اصغری* الذی وصل إلی أنّ *نجیب محفوظ* بهذه الرّوایات تطرّق فی روایاتـه الرمزیـة إلی شؤون الشعب المصری، کما اعتاد أن یعمل هکذا فی روایاته الواقعیة ولکن بعد فشـل الثورة الاشتراکیة استفاد من الرّمز لتصویر المجتمع المصری وتبیین عوامـل هـذا الفشـل وإیضاح الوضع الراهنة للشرائح المختلفة التی شارکوا فی الثّورة.

والمقالة الأخری هی «قراءة فی المدرسـة الأدبیـة لروایـة الثّلاثیـة لنجیـب محفـوظ» *لفرامرز میرزایی* و*مظفر اکبری* مفاخر ومن نتائج هذه المقالة هی أنّ *نجیب محفوظ* اتّصل الأدب بالتّاریخ والاجتماع والفلسفة، وکلّ ما یربط بالمصریین وما سیحدث لهم فی بلادهم وأیضاً أشارت هذه المقالة إلی الثنائیة الثقافیة بین الشرق والغرب، وبین الحریّة والاستبداد وبین الإیمان الحقیقی والإیمان الکاذب حیـث تتجلّـی هـذه الثنائیّـات کلّهـا فـی أعمـال شخصیّات الرّوایة منبعثةً من لاوعیهم.

وأیضاً مقالة «أزمة المراة فی عدد من قصص نجیب محفوظ» *لحسـین شـمس آبـادی* و*غلامرضا گلچین راد* و*فرشته أفضلی*؛ و«التّحلیل الاجتماعی لروایة "زقاق المدق" لنجیب محفوظ» *لحسن عبداللهی* و*امید ایزانلو* التی تطرّق الباحثان فیها بظروف مصر الاقتصادیّة والسیاسیّة والاجتماعیّة بشکلٍ عامٍ وقاموا بتعریـف شخصـیّات الرّوایـة فـی سـطرین علـی

الأكثر وفی مجال شخصيّة «حميدة» أشار إلى نزعته الشديدة إلى الثروة مع طموحها للخروج من الزقاق كما أشار إلى هذا الطموح فی «عبّاس الحلو» و«حسين كرشة» ولم يفسّرا بقيّة الأزمات الموجودة فی شخصيّة حميدة التی تطرّقنا إليها بالتفصيل فی مقالتنا هذه، والمقالة الأخرى هی «صدى المرأة فی الأعمال النقديّة الواقعيّة لنجيب محفوظ» *لكبرى روشنفكر وصلاح الدين عبدى* التی تطرّقت إلى أربع روايات من *نجيب محفوظ* منها رواية «زقاق المدق» أشار إلى رأی *نيتشه* حول النساء، كما قسّم نساء هذه الرّواية إلى أقسام عديدة وجعل «حميدة» عضواً فی مجموعة النساء المعشوقات وأيضاً فی مجموعة النساء الفقيرات، والبحث الآخر هو كتاب «الرمزية فی أدب نجيب محفوظ» *لفاطمة الزهراء* محمّد سعيد مع ترجمة *نجمه رجايی* الذی أشارت الكاتبة إلى ميلِ «حميدة» إلى الثروة ورفهية العيش ولم تذكر الأزمات الأخرى فی حياة هذه الفتاة وكيفية معاملتها مع هذه المصائب. فجديرٌ بالذكر أنّه لم تتطرّق هذه الكتب والمقالات إلى رواية «زقاق المدق» كما تطرّقنا إليها فی مقالتنا هذه.

النقد الاجتماعی وعلم اجتماع الأدب

النقد الأدبی هو فنّ دراسة الأعمال الأدبية دراسةً تقوم على التحليل والشّرح والتفسير لتذوقها تذوقاً صحيحاً والحكم لها أو عليها بموضوعية وإنصاف. ويختلفُ متذوّقوا الأدب فی نظرتِهم للأعمال الأدبية وحُكمِهم عليها باختلاف الأسس التی يعتمدون عليها فی نقدِهم والقواعد التی يتبعونها فی إصدار الأحكام(صيّادانی وآخرون، ١٣٩۴ش: ٣۴). هناک للأدب انعكاسات اجتماعيّة عديدة كما يؤكّد *جورج لوكاتش*(١٨٨٥-١٩٧١م) هذا الأمرَ قائلاً بأنّ الأدب يعكسُ المجتمعَ(قصّاب، ٢٠٠٩م: ١۴۵) وهو فی حد ذاته يعدّ انعكاساً اجتماعياً حتّى فی أكثر موضوعاته الشخصيّة، فهو نشاط اجتماعی قبل أن يكون نشاطًا لغويًا، وحتّى اللغة تُفسَّر من منظور اجتماعی قبل أن تفسَّر من منظور آخر(فراج، ٢٠٠٣م: ٩۶). وبما أنّه تتركّز وظائف علم الاجتماع وأدواره فی وظيفة مجتمعية(عبد المعطی، ١٩٨١م:٧٢) نستطيع أن نقول إنّ الأديب يستخدمُ أثره - شعراً كان أو نثراً- أداةً لإنجاز هذه المهمّة(منتظری وآخرون، ١٣٩١ش: ١۵٢)؛ لذلک إنّ نقاد الأدب ومنظّريه فی جلّ عملهم يركزون على اجتماعيّة المضمون وبرغم الإلحاح المتواصل على تلازُمِ الشكل

والمضمون فإنّ دراسة المضمون ظلّت هی المهیمنة ولیس ثمة شک فی أهمیة هذا المنحی فی سیاق الوعی بظاهرة اجتماعیّة الأدب(بدوی، ۲۰۰۶م: ۷). والمحاولات الحدیثة للنقد الأدبی الاجتماعی قد ظهرت مع المفهوم الأفلاطونی الشهیر «المحاکاة» الذی نماه بعده *أرسطو* بعبارته المعروفة: «إن شعرَ الملاحم وشعر التراجیدیا، وکذلک الکومیدیا کلّ هذا بوجه عام أنواع من محاکاة الواقع». ویری إسکاربیت أنّ الواقعة الأدبیة کعملیة یشکل العنصر الاجتماعی مظهراً من مظاهرها، وأنّ هذه الواقعة علی مستوی التنظیم، یشکل العنصر الأدبی أحد مظاهر العنصر. ویهتمّ علم اجتماع الأدب بدراسة الأجیال الأدبیة والقیم الاجتماعیّة للجماعة کما أنّه یعمل علی ارتباط الفکر الأدبی بأدوات الإنتاج الاجتماعیّة والبطل المشکل فی الرّوایة هو ذلک البطل الذی یدور فی فلک الأُطُر الاجتماعیّة ذات القیمة العالیة أو المنحطة بهدف تعریتها والتفاعل معها أو رفضها ویعتقد بأنّ أیّ مؤلف أدبی أو روائی لا یظهر من العدم بل تفرزه ظروف تاریخیّة واجتماعیّة ملموسة. یهتمّ المنهج الاجتماعی بالرّوایة أکثر من غیرها من الفنون الأدبیّة الأخری وهذا الاهتمام راجع إلی کون الرّوایة تقدّم کثیراً من القضایا الاجتماعیّة «ومِن أهمّ الرّوایات التی عالَجَت التّحوّلات الاجتماعیّة فی مصر هی روایة زقاق المدق *لنجیب محفوظ*»(مرتاض، ۱۹۹۸م: ۴۵) الذی یجب أن یُعدَّ أکثر الکُتّاب الروائین العرب تَعَدُّدَ رؤیة وأشدّهم تسجیلاً للحیاة الاجتماعیّة والتّاریخیّة المصریة(المصدر نفسه: ۹۲).

علم اجتماع المحتوی

علم الاجتماع هو الدراسة العلمیة الموضوعیة للإنسان فی المجتمع وهو یحاول أن یدرس النُّظُم والعلاقات والعملیات الاجتماعیة. مِن المناهج المستخدمة فی علم الاجتماع هو منهج تحلیل المضمون أو المحتوی «Content Analysis Method»؛ إذ فی کثیرٍ مِن الأحیان یرکّز علم الاجتماع علی دراسة محتوی المؤلّفات الأدبیّة وجوهرهم الاجتماعی إضافة إلی الصّلة الوثیقة بین الأدب والمجتمع(رحمدل وفرهنگی، ۱۳۸۷ش: ۳۹). قامَ *هانری زالامانسکی* بدراسة الآثار الأدبیّة عبر هذا المنهج ورأی بأنّ الانتزاع مِن مضمون الآثار الأدبیّة هو خیر وسیلةٍ لدراستها وتحلیلها(عسکری حسنکلو، ۱۳۸۷ش: ۶۹) واستخدام محتوی الأثر الأدبی فی هذا المنهج کوسیلة لدراسة مستوی انعکاس التّحوّلات

السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتّى يبيّن الصلة الوثيقة بين المؤلّفات الأدبية وبين النّزعات الفكرية للطبقات الاجتماعية. يسعى هذا المنهج كيفية انعكاس الحياة الاجتماعية فى مرآة الأدب ويفترض الأثر الأدبى كوثيقةٍ اجتماعية فيعتنى به ويفحصه(گريس، ١٣٨١ش: ١٤). فملخّص القول أنّ هذا المنهج عبارة عن الوصف الموضوعى للمحتوى الظاهر لموضوعات الاتصال الجمعى الذى يحصل عليها الباحث من الإذاعة والصحافة ومختلف المؤلّفات العلمية والأدبية وذلک للكشف عن القيم والآراء والإتجاهات الثقافية والسياسية التى تسود المجتمع فى الماضى والحاضر والمستقبل مما يساعد فى الوقوف على عوامل التغير الاجتماعى وشكل المجتمع بعد التغير.

وكذلک يهتمّ هذا المنهج بمحتوى النصّ مِن خلال تأثيره على المتلقّى ومدى وعيه الاجتماعى(زالامانسكى، ١٣٨١ش: ٣٢٠). يعتقد *زيدان عبد الباقى* أنّ هذا منهج يستخدم فى تصوير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة فى المجتمع. كذلک *محمّد الجوهرى* يرى بأنّ تحليل المضمون طريقة تمكن عالِم الاجتماع من ملاحظة سلوک الأفراد بطريقة غير مباشرة من خلال تحليله للأشياء(الرموز اللفظيّة) التى يكتبونها(سالم، ١٩٨٣م: ٤٥). فتحليل المضمون يفيد فى التَّعرف على المغزى الحقيقى للأعمال الأدبية ومدى ارتباطها بالواقع أو تعبيرها عنه ومِن ثمة دعامة أساسية فى ميدان سوسيولوجيا الأدب «مِن أهمّ وظائف علم الاجتماع هو خلق الصلة بين تجارب الشخصيّات الواقعية والخيالية فى الآثار الأدبية وبين الحياة الاجتماعية حتّى يبدّل التأويلات الأدبية كقسمٍ مِن علم الاجتماع»(لونتال، ١٣٨٦ش: ٧٦). فمن الضرورى أن نهتمّ بما يتعرّض به النّاس مِن خلال المؤلّفات الأدبية ومِن أيّة نزعةٍ يبيّنه الأديب وفى النّهاية ماذا يقترح لحلّ المشاكل فى المجتمع؛ فعلى هذا الأساس لا يبالى الناقد فى هذا المنهج بشخصية الأديب وحياته ونزعاته أبداً بل همُّه الرئيس هو ما يُشرحُ فى الآثار الأبية مِن النزعات والإيدئولوجيات التى تخلق حياة النّاس الفكرية فيما بعد.

الشخصيّة فى الرّوايات الاجتماعية

إن الشخصيّة هى واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى فى الرّواية والقصّة؛ حيث إنّها هى التى تخلق اللغة وتبثّ أو تستقبل الحوار، تصطنع المناجاة أى حديث

النّفس«Monologue» وتصف معظم المناظر وتنجز الحدث وتنهض بدور تضریم الصراع أو تنشیطه من خلال سلوکها وأهوائها وعواطفها وهی التی تقع علیها المصائب(مرتاض، ١٩٩٨م:٩١). والشخصیّة تسخر لإنجاز الحدث الذی وکل الکاتب إلیها إنجازه. وتُعامَل الشخصیّة فی الرّوایة علی أساس أنها کائن حی له وکانت الشخصیّة تلعب الدور الأکبر فی أیّ عمل روائی کما فعل *بالزاک*، *إمیل زولا* و*نجیب محفوظ* ویبدو أنّ العنایة الفائقة برسم الشخصیّة، أو بنائها فی العمل الروائی، کان له ارتباط بهیمنة النزعة التّاریخیّة والاجتماعیّة من جهة، وهیمنة الإیدیولوجیا السیاسیّة من جهة أخری. فکأنّ الشخصیّة فی الرّوایة التقلیدیة کانت هی کلُّ شیء فیها؛ بحیث لا یمکن أن نتصوّر روایة دون طغیان شخصیّة مثیرة یقحمها الروائی فیها؛ إذ لا یضطرم الصراع العنیف إلّا بوجود شخصیّات تتصارع فیما بینها، داخل العمل السردی(مرتاض، ١٩٩٨م: ٧٥- ٧٦). لما وضعت الحرب العالمیّة الأولی أوزارها واجهت الرّوایة العالمیّةُ الاهتزازَ والتشکیک فی قیمة شخصیّاتها، وصدق تمثیلها لصور الحیاة الاجتماعیّة، فکان بعض الروائیین متعصبین لضرورة قیام الشخصیّة فی الرّوایة بوظیفتها الاجتماعیّة(المصدر نفسه: ٩٢).

فالرّوایة السیکولوجیة هی التی تتّجه نحو تحلیل الحیاة الداخلیة وتتمیّز بسلبیة البطل ووعیه الذی کان أوسع من أن یرضی عمّا یمکن لعالم الاتّفاق أن یقدّمه له(غولدمان، ١٩٩٣م: ١٦). ومِن أهمّ المیزات التی تتّصف بها الشخصیّات فی الرّوایات الاجتماعیّة هی تتحلّی الشخصیّة بصفات ثابتة وتدور أعمالها حول محورٍ واحدٍ، تتمیّز بالإفراط فی صفاتها الحسنة أو السیّئة، إنّ البطل- وهو الشخصیّة الرئیسة - فی الرّوایات الاجتماعیّة یعارض المجتمع فی کثیر المجالات فتنتهی هذه المعارضة والمقابلة إلی هزیمته وتسلیمه أمام الوقائع(میرعابدینی، ١٣٨٠ش: ١/ ٦٠) وبما أنّه کُتبَت هذه الرّوایة خلال الحرب العالمیة الثانیة فعلینا الإشارة إلی أوضاع مصر أثناء هذه الحرب ثمّ المبادرة بدراسة الرّوایة.

روایة زقاق المدق

إنّ روایة «زقاق المدق» إحدی روایات *نجیب محفوظ* فی المرحلة الاجتماعیّة الواقعیة. «اتّخذَ *نجیب محفوظ* مِن قصصه وسیلةً لتنویر الأفکار وتحسین المجتمع مع اتّسام روایاته بالرمزیة والواقعیة الفلسفیة. نقل *نجیب محفوظ* فی أعماله حیاةَ الطبقةِ المتوسّطة

فی أحیاء القاهرة، فعبّر عن همومها وأعمالها، وعَکَس قلقَها وتوجساتها حیال القضایا المصریة، کما صوّر حیاة الأسرةِ المصریة فی علاقاتها الدّاخلیة وامتداد هذه العلاقات فی المجتمع»(ریحانی أردبیلی ودیباجی، ١٣٩٣ش: ۴٣). تدور هذه الرّوایة حول أحداثٍ وقَعت فی زقاق قدیم من أحیاء القاهرة القدیمة خلال الحرب العالمیة الثانیة. إنّ «زقاق المدق» هو المحور الأبرز فی الرّوایة، المرتبط بکل ما فیها من شخصیّات وأحداث ارتباطاً وثیقاً. فالصراع فی هذه الرّوایة قائم علی أساس علاقة الإنسان بالمکان، والعلاقات بین الناس بعضهم مع بعض، وعلاقاتهم بالعالم الخارجی. فـ «حمیدة» بنت الزقاق المتمردة العنیدة علی کل ما حولها، والجمیلة الفاتنة التی تأسر ألباب الرجال بجمالها وغنجها، همُّها الوحید هو الخلاص مِن الزقاق ومِن کل ما یرتبط به عندها من فقر وعیشة وضیعة، وذلک بأیة وسیلة، ومهما کان الثمن لکنها تنتهی بین أحضان الإنجلیز مستخدمة جسدها للحصول علی الأموال و الوصول لرفهیة العیش وزخارفها. حیث انجرت خلف قوّاد هو «فرج إبراهیم» لتسقط عن طریقه فی مهاوی الرذیلة، وتتحوّل إلی عاهرة فی حانات الإنجلیز، ضاربة بِعرض الحائط ذلک الشاب المخلِص «عباس الحلو» الذی عاهَدَته قبل رحیلِه علی الزواج، فلم یخرج من الزقاق إلّا وقد قُرِئت فاتحتُهما، ولم یخرج منه إلّا من أجلها لیوفر لها المال والحیاة المترفة التی لم تکن لترضی عنها بدلاً ولکنّه یموت علی ید الإنجلیز وهو یحاول انتزاعها من بینهم.

شخصیة حمیدة فی روایة زقاق المدق

إنّ *نجیب محفوظ* منذ بدایة إنتاجه الأدبی أولی للمرأة و لوضعها الاجتماعی اهتماماً کبیراً ولاسیّما فی روایاته الواقعیة الأولی التی حرص فیها علی إدراج مناقشات ساخنة بین الشباب ویعبّر فیها عن آرائه بشأن قضیة المرأة وتعلیمها(العشماوی، ٢٠٠٥م: ٢٣). ففی بعض الأحیان تجسّد الشخصیّة النسائیةُ الحیاةَ الیومیة فی الأحیاء الشعبیة مثلما حدث فی «زقاق المدق» حیث عرض حیاة أهل الزقاق مِن خلال «حمیدة» البطلة المتمرّدة علی الزقاق وتقالیده وعلی مَن فیه(المصدر نفسه: ١٨٧). إنّ «حمیدة» شخصیّة تتطلع إلی الدنیا بعین الحرمان وتندفع إلیها بقوّة قلبٍ یفیض بالرغبة فی الحیاة والثّراء دون قیود داخلیّة وقد ترکت الزقاق تنهدر إلی هاویة الشهوات مِن أجل المال والرغبة فی الثّراء.

حمیدة تجسیدٌ حیٌّ لواقع کانت تعیشه مصر. ولهذه الشخصیّة مکانة خاصة تختلفُ عن الشخصیّات الأخری فی الرّوایة کلّها وقد اختلف النقّاد حول هذه الشخصیّة منهم *الدکتور طه الوادی* بأنّ «حمیدة» تعنی مصر(الغیطانی، ١٩٨٠م:١٠٢). فی هذه الروایة یأتی *نجیب محفوظ* بشخصیّة «حمیدة» وهی فتاة جملیة تعیش بین شخصیّات «زقاق المدق» الذی تصفه فی النهایة بأنّه زقاق العدم، و«حمیدة» کما یصوّرها المؤلف فی الروایة هی شخصیة شدیدة الطموح، تتّطلع عیونُها الجمیلة إلي ما هو أبعد مِن عالم الزقاق وقلبُها یخفق لمرأي البنات الجمیلات وهنّ یرفلن فی ملابسهن الجمیلة، فلا تملک «حمیدة» إلّا أن تقول ما قیمة الدنیا بدون الملابس الجدیدة! نعم هی متمرّدة شغوف بأن تعیش حیاة أخری فی عالم آخر ولم تکن الظروفُ تعمل لصالحها دائماً حینما قذفت بنفسها إلی قلب المدینة الصاخبة وهی تعیش فی أجواء الحرب العالمیة الثانیة، وکانت الحرب بآثارها المادیّة والاجتماعیّة هی التی دفعت بحمیدة إلی الانحراف.

الأزمات الاجتماعیّة في روایة «زقاق المدق»

علی أساس ما ذکرنا فیما قبل حول محور الرّوایة المدروسة وبطلتها «حمیدة»، فعلینا التطرّق إلی الأوضاع الاجتماعیّة فی هذه الرّوایة والأزمات التی تعرّضت حیاة «حمیدة» وجعلتها متمرّدة، ثُمّ یجب دراسة معاملة «حمیدة» تلک الظروف السائدة علی حیاتها کما یلی.

١.التضاد الطبقی

ترتبط مکانة الفرد بطبقته الاجتماعیّة ارتباطاً حیویاً؛ وربّما یکون الوضع الطبقی هو المحدّد الأول لمکانة الانسان فی المجتمع ومدی قبوله عند النّاس. وفی بعض الأحیان إنّ الشخص الذی ینتسب إلی طبقةٍ غیر رفیعة فهو الذی تدمَّرُ أیة فرصة لقبوله فی الجماعة(عودة، لا تا: ٢١٨). هناک عبارات عدیدة فی هذه الرّوایة تبیّن لنا موضع «حمیدة» الاجتماعی؛ فمنها توصیف *نجیب محفوظ* لها: «فما تدری إلّا وصویحباتها مِن بنات المشغل یقبلن نحوها غیر بعیدات!» (محفوظ، لاتا: ١٧٢) وإذا قال المؤلف حول أتراب «حمیدة» هکذا: «واستحثت(حمیدةُ) خطاها حتّی التقت بصویحباتها، ثمّ عادت

معهنّ وقد أنذرنها بأنّهن سيفقدن قريباً إحداهنّ التی ستتزوّج مِن زنفل صبی دکان طعمية سيدهم»(المصدر نفسه: ١٧٥). وأيضاً إنّ المؤلف يُسدل السّتارَ عن هذا الأمر بهذه العبارات: «ومرّت عند ذاک بعطفة العوارجة حيث يقيم بعض صويحباتها فتمنّت أن يرينها وهذا الأفندی يغازلها»(المصدر نفسه: ١٧٨). وكذلک عندما خاطبت «حميدةُ» نفسها إذا سمعت «فرج ابراهيم» يقول للسائق: «شارع شريف باشا ... شريف باشا، لا المدق، ولا الصّنادقية ولا الغورية ولا حتّی الموسکی، شريف باشا!»(المصدر نفسه: ٢٠١) وشبيه بالعبارات الماضية هذه العبارة التی قال الأفندی للسائق: «إلی ميدان الأوبرا أولاً ثمّ عُد إلی شارع فؤاد الأوّل، واحدة واحدة مِن فضلک»(محفوظ، لا تا: ٢٨۴).

وعلينا أن نقرّ بأنّ أجمل عبارة تدلّ علی البون الشاسع بين «حميدة» و«فرج ابراهيم» هی العبارة التی أورد بها *نجيب محفوظ* عند توصيف «حميدة» زمن رکوبها تاکس للذهاب إلی بيت «فرج ابراهيم»: «قال(فرج ابراهيم): إذا شئت رکبنا تاکس فيقطع بنا مسافة طويلة فی دقائق معدودات». فقال المؤلف إثر هذا الکلام: تاکس! لقد رنت الکلمة فی أذنيها رنيناً عجيباً و لم تکن رکبت فی حياتها إلّا العربة الکارو، ومضت ثوانٍ قبل أن تفيق من سحر الکلمة العجيبة»(المصدر نفسه: ٢٠٠- ٢٠١). و«جاءت السيّارة ففتح لها الباب، ورفعت قدمها لتصعد إليها، ففصلت هذه الحرکة بين حياتين»(المصدر نفسه:٢٢٠). ولکن عندما يتحدّث المؤلّف حول «فرج ابراهيم» وأعماله وأقواله تجاه «حميدة» نعثر علی عبارات تصدّق علی طبقة «حميدة» الاجتماعيّة وعلی ما بينها وبين «فرج ابراهيم» من البعد الطبقی لاسيّما فی هذه العبارة التی خاطَب «فرج ابراهيم» «حميدةَ»: «کيف تسيرين بملاءتک بين هولاء الفتيات! ... أين هنّ منک! أميرة فی ملاءة، ورعية ترفل فی الثياب الجديدة»(المصدر نفسه: ١٧٨) و«ضحکت(حميدةُ) ضحکة قصيرة وقالت: أراک تذکرنی بأنّه ينبغی أن أعود الآن إلی البيت. وکان(الأفندی) فی الواقع يستلهم خطة مرسومة من قبل، فقال بإنکار: أی بيت تعنين ... بيت الزقاق! ... آه ليتک تمسکين عن ذکر ذاک الحیّ جميعاً. ماذا يعجبک فی هذا الزقاق؟ لماذا تعودين إليه»(المصدر نفسه: ٢٠٨) وکذلک عندما خاطبها هکذا: «فأذنی لی أن أسألک بدوری: لماذا تعودين إلی المدق؟ أتنتظرين هناک شأن الفتيات البائسات حتّی يتعطّف رجل مِن مخلوقات الزقاق فيتزوّجک ويلتهم حسنک النضير وشبابک الغض ثمّ يترکک فی لقی فی الزبالة»(المصدر

نفسه: ٢٠٩). ففی کلّ العبارات التی أوتیَت بها فی هذه السطور نشاهد طبقة «حمیدة» الاجتماعیّة عند توصیف *نجیب محفوظ* لها ومدی بُعدها عن الحیاة المليئة بالرفهية التی کان یغرق فیها «فرج ابراهیم» وصویحباتها.

٢.الکفران

الکفران من الصفات الذمیمة وهو بمعنی عدم الاهتمام بحسنات الآخرین أی المعاملة السیئة تجاهها. وکان الکفرانُ من میزات «حمیدة» الخلقیة حیث لم تکن معاملتُها مع أمّها معاملةً حسنةً، وإذا دقّقنا فی أعمال «حمیدة» مِن هذا المنظار یتّضح لنا میزتها هذه أکثر فأکثر ومن آثار هذه المیزة فی تصرّفاتها نستطیع الإشارة إلی کلامها خطاباً لنفسها بعد نزاعها مع أمّها: «آه یا خسارتک یا حمیدة، لماذا توجدین فی هذا الزقاق؟! ولماذا کانت أمک هذه المرأة التی لا تمیّز بین التبر والتراب؟!»(المصدر نفسه:٣١)، أو عندما خاطبتها «حمیدةُ» حینما کانتا تتحادثانِ حول أهل الزقاق شَکَت «حمیدةُ» قائلةً: «سادة دنیاک أنتِ، کلّهم کعدمهم، اللهم إلّا واحداً به رمق جعلتموه أخی»(المصدر نفسه: ٣٠)، وکذلک حیث لامت أمَّها وتنهّدت: «حیاة الیهود هی الحیاة حقّاً» فانزعجت أمّها و قالت: إنّک من نبع أبالسة ودمی بریء منک ...»(محفوظ، لا تا: ۴۵). فی النموذج الأول تخاطِبُ «حمیدةُ» نفسَها وتشکو من ظروف حیاتها ولاسیّما العیش عند امرأةٍ لا تلائمها ولا تستطیع أن تتکیّف مع تطلّبات «حمیدة»، وفی المثالین الثّانی والثّالث تشکو من الحیاة مخاطبةً أمَّها فکأنّها تعدّ أمّها السببَ الرئیس فی تلک الحیاة الدنیة مع أنّ أمّها کانت لا تعلو جهدا إلّا وبذلَتها لتُعدَّ أسباب حیاةٍ سلیمةٍ لها ولکن لم ترض نفسها الأبیّة الطامحة.

٣.تعارض الأجیال

هناک أحداث عدیدة تحوّل أفکار الأشخاص ورؤیتهم إلی المجتمع وکذلک إلی أنفسهم، وفی النهایة تتمثّل هذه التحوّلات کأعمال مختلفة لاسیّما مِن قِبَل الشّباب؛ إذ إنّهم یقضون مرحلة إکمال شخصیّتهم فی المجتمع وبالنسبة إلی کیفیة التحوّلات وانعکاسها یبرز الاختلاف بین الأجیال أکثر فأکثر(کاظمی پور، ١٣٨٢ش:٢٣). بعبارة أوضح، عندما ینتقل الأطفال من مرحلة الطفولة إلی مرحلة الشباب وهی مرحلة الإزهار،

يتغير أسلوب تعاملهم، فهم لا يرغبون فی الاستماع إلـی والـديهم ويعـدون كلامهـم مـن قبيل الوعظ المفرط ويفضلون عليهم أصدقاءهم(الصائغ، ٢٠٠٩م: الاختلاف فی الرأی بـين الآباء والأولاد، muntada.islamtoday.net) والوالدان الحافظانِ لسنن الأجـداد الأصـيلة لا يطيقانِ طردَ تلک السننِ من قِبل الأولاد، فتحوّل تلک التعارضات بـين الأبنـاء والوالـدينِ حاجزاً أمام انتقال الثقافات والقيم الأخلاقية إلی الأجيال القادمـة بصـورة صـحيحة. وفـی رواية «زقاق المدق» كان للعيش بجانب امرأة كبيرة السنّ أثر سیءٌ فی حيـاة «حميـدة»؛ إذ أدّی ذلک البون الشاسع إلی الفروق الكثيرة المخرّبة بينهما، حيث كانـت «حميـدة» لا تقبل نصائح أمّها ولم تستطع أن تتكيّف مع طموحات أمّهـا، فبـرز التعـارض بينهمـا فـی الأعمال والأقوال؛ فمِن ملامح هذه الظـاهرة نسـتطيع أن نشـير إلـی الحـوار الـذی جـری بينهما حول زواج «سنية عفيفی»، فتولّت الفتاة الدهشة وقالت: - الزواج!/ - أجـل، وتريـد شاباً. أسفی عليک مِن شابة عاثرة الحظ لا تكد مَن يطلب يدها!/ فحـدجتها الفتـاة بنظـرة شزراء وقالت وهی تضفر شعرها: - بل أجـد كثيـرين، ولكنّک خاطبـة فاشـلة تريـدين أن نداری فشلک. وماذا بی ممّا يعيبک؟ ولكنّک كما قلت امرأة فاشـلة، يصـدق عليک المثـل القائل: «باب النجّار مخلع» .../ فابتسمت أمّ حميـدة قائلـة: - إذا تزوّجـت السـت «سـنية عفيفی» فلا يصحّ لامرأة أن تيأس .../ ولكن الفتاة رمتهـا بنظـرة غاضـبة وقالـت بحـدّة: - لست أجری وراء الزواج، ولكنّه يجری ورائی أنا، وسـأنبذه كثيـراً .../ - طبعـاً! أميـرة بنـت أمراء!/ فتغاضت الفتاة عن سخرية أمّها وقالت بنفس اللهجة الحادّة: - أفی هذا الزقاق أحـد يستحقّ الاعتبار؟/ ولم تكن الأمّ فی الواقع يداخلها خوفٌ علی الفتاة مـن البـوار ولا تشـكّ فی جمالها ولكنّها كانت كثيراً ما تثور بعجبها وغرورها»(محفوظ، لا تا: ٢٩). وهـذا الحـوار يدلّ علی ما بينهما مِن النزاع حول الزواج الذی يرتبط كثيراً بأفكار النّاس ووجهة نظـرهم حول الحياة ولاسيّما إذا كان النزاع حول هذه الظاهرة بين الأبوين وأولادهم الـذين يـرون أنّ الأبوين لا يعرفون إلّا قليلاً عمّا يدور حولهم من القضايا الموجودة فی مجتمعهم حيـث كان وفی أی زمنٍ ما. وإنّ كثرة الكنايات فی هذه العبارات تُرشدنا إلی فهم ذلک التعـارض ويدلّ علی مدی تحسّرها مِن هذه الفاصلة الفارقة بينهما. كذلک عندما تحدّثت «حميدة» مع أمّها حول زواجها- زواج حميدة- بـ «سليم علوان» ونسـيانها «عبّـاس الحلـو» هكـذا: «هزت منكبيها استهانة، وقالت باستخفاف واحتقار: - ذبحة ... / - ماذا يقولون النّاس عنّا؟/

- دعیهم یقولون ما بدا لهم»(محفوظ، لا تا: ١٥١). نری أثر هذه الظاهرة فـی أقوالهمـا؛ إذ لا تبالی «حمیدةُ» بأقوال الآخرین حول هذا العمل ولکـن أمّهـا تهـتمّ بمـا یفکّـر النّـاس ویقولون.

٤.العنف

هناک ظروف، وإن لم تؤدّ إلی هذه الظاهرة مباشرة وحتمیة، فهی تخلقُ المنـاخ الـذی یغری به أو یدفع إلیه، مثل البطالة وعجز الشّباب عن تحقیق مطالبهم المشـروعة وانعـدام تکافؤ الفرص والاستهتار بحقوق الانسان(المصدر نفسه: ١٧٥ - ١٧٦). قد شـهد المجتمـع المصری نمواً ملحوظاً فی ظاهرة العنـف؛ منهـا العنـف السیاسـی، العنـف الـدینی، العنـف الأسری، وغیرها من الأشکال التی اتخذت لنفسها مکاناً علی ساحة المجتمع المصری، فإنّ تناول ظاهرة العنف فی المجتمع المصری تُعتَبر إحدی الملامح الذی أصبح یشـکل آلیـة مـن آلیـات التفاعـل الاجتمـاعی داخـل الأسـرة خاصّـة أو داخـل المجتمـع المصـری عامة(محمّد، ٢٠٠٨ – ٢٠٠٩م: ٧). وفی مجال أحوال «حمیدة» علینا الإذعان بأنّه عنـدما یعیش الإنسان عیش الضنک فی تلک الظروف التی کانت تعیش «حمیـدة» وهـی کانـت تقارن نفسها مع بنات المشغل والأثریاء وتتعارض دائماً مع أمّها، فمِن البـدیهی أن یغلـب علیها السخط وبالتّالی یؤثّر هذا السخط والعنف علی کثیرٍ مِن أعمالها وأقوالها لاسیّما عنـد التحدّث حول أهوائها وأهدافها فی الحیاة، ومِن تجلّات هذه الظاهرة یجدر الإشارة إلـی مـا قالت لأمّها عندما تذکّرتها تعارضهما حول الجلباب هکذا: - آکلـة شـاربة ثـمّ لا تشـکرین. أتذکّرین کیف أطلقتَ لسانک الطویل بسبب جلباب؟!/ فقالت «حمیـدة» بدهشـة: و هـل الجلباب شیءٌ یهون؟! ... ما قیمة هذه الدنیا بغیر الملابس الجدیـدة؟! ألا تـرین أنّ الأولـی بالفتاة التی لا تجد ما تتزیّن به مِن جمیل الثیاب أن‌تدفن حیـة؟!(محفوظ، لا تـا: ٣٠)، أو عندما طلب منه «عبّاس الحلو» أن تتحدّث معه فی السوق حتّی یخبرها عن حبّـه إلیهـا، فخاطبته «حمیدةُ» بالعنف والغضب: «لقد جاوزتَ حدّک. کلّا ... کلّا ... دعنی ...»(المصـدر نفسه: ٤٧). وکذلک عندما عاتبتها أمّها عند نسیانها «عبّاس الحلو» قائلـة بسـخریة: «مـن حقّک أن تبیعی صینیة البسبوسة بصینیة الفـریک ...» وصـف المؤلـف «حمیـدةَ» هکـذا: «نظرت إلیها بتحدّ وقالت بغیظ: «بل رفضتُ شاباً واخترتُ شیخاً»(المصـدر نفسـه: ١٥٥)،

وأيضاً إذا لامها الأفندی بسبب اندراس ملائتها، أجابته «حمیدة» بحدة: «ما لک أنت ولهذا! ... ابتعد ...»(المصدر نفسه: ١٧٨).

وكذلک تبرز هذه المیزة عند تحاورها مع الأفندی «فسألته بحدة: - ماذا تريد؟/ فقال بجرأة عجيبة: - أريدک أنت، ولا شیء غيرک ... /- ذبحة .../ - سامحک الله. لماذا تغضبين؟ ... ألست فی الدنيا لتؤخذی؟ ... وإنّی لآخذک .../ ومرّا فی طريقهما ببعض الدّكاكين، فنهرته قائلة: - لا تخط خطوة واحدة، وإلّا ... / فقال مبتسماً: - الضرب؟ ... / - وخفق قلبها وتألقت عيناها، فقالت: - صدقت ...»(المصدر نفسه: ١٧٩).

ولا تنبعث هذه العبارات إلّا من نفسٍ غلب عليها العُنف والسخط الشديد الذی ينبع من عيشها الضنک، وكذلک سخطت عليه فی موضع آخر قائلة: - «إنّی أمقت هذا التهجّم، فاحذر أن تخرجنی عن وعيی ... / وطالع نذر الشرّ فی وجهها فسألها فی رجاء: - أتعدينني بأن نسير معاً؟/ فهتفت به: - لا أعد شيئاً ... دع يدی ...»(محفوظ، لا تا: ١٩٧ – ١٩٨) وعندما عرفت الأفندی معرفة صحيحة غضبت عليه وما أجمل ما قال *نجيب محفوظ* فی وصف «حميدة» آنذاک «وارتمت عليه ناشبة أظافرها فی عنقه؛ ولن تجفوه حركتها المباغتة فتلقّاها بسكينة، وقبض على ساعديها وفرح بينهما ثمّ تخلّص منها والابتسامة الهازئة لاتفارق شفتيه، فاشتدّ حنقها وغضبها، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفته بكلّ ما أوتيت مِن قوة وعصبية وغاصت ابتسامته»(المصدر نفسه: ٢٨٢).

فإذا تأمّلنا فی هذه الأقوال والأوصاف نری بأنّ الفقر قد تضمّن جميع أحوال «حميدة» وأدّی إلى العنف الشديد فی شخصيته إضافة إلى كثير من الصفات الذميمة التی أشرنا إليها فيما مضی، ويتّضح العنف بكل الوضوح فيما خاطبت به «فرج ابراهيم» وكذلک عند خطابها لـ «عبّاس الحلو» حينما غضب عليها ونسب إليها الفحشاء، خاطبته «حميدةُ» هكذا: «صه ... لا تزعق كالمجانين، أحَسبتَ أنّک تخوّفنی بصراخک؟! ماذا تريد منّی يا هذا؟ لا حقَّ لک علیَّ فاغرب عن وجهی»(المصدر نفسه: ٢٨٧) وفی هذه العبارات أيضا تتّضح غلبة البطش الشديد على «حميدة» حيث لا تبالی بما تقول لـ «عبّاس» فكأنّها نسيت أنّ «عبّاس» هو ذلک الرجل الذی عَشِقها شديداً حيث رحل عن بلاده للحصول على الثروة العظيمة حتّی يُرضی «حميدةَ» للزواج.

٥.الفساد

مهما أوتی الإنسان مِن أسباب التّربیة والتّهذیب، فستظلّ نسبة منه ضحیّة لأهوائها الجامحة وغرائزها الکامنة؛ لذلک نجدُ الفساد فی جمیع الدّول متخلّفةً و متقدّمةً، غیر أنّ الأمر یختلفُ بین دولة وأخری فی درجة مقاومتها للفساد (محفوظ، ١٩٩٦م: ١٧٧). یعترف *نجیب محفوظ* نفسه بأنّ المجتمع المصری قد تعرّض لآفات شرسة نتیجة لحکمٍ شمولی غاشم، وحروب طاحنة وأزمات اقتصادیّة وإحباطات متلاحقة، فنَسی نفسَه وتقالیده النبیلة وذهل عن مبادئه ولو تقصینا عن أسباب الخسائر لوجدنا أنّها ترجعُ إلی الفساد بمثل ما ترجعُ إلی سائر الإحباطات(المصدر نفسه: ٢٩ و ٣٠)؛ ویری بأنّه یجب الإسراع إلی تطهیر البلاد مِن الفساد حتّی نُعید إلی الحیاة توازنَها وإلی الأنفس الثقة والأمل حتّی یصیرَ المجتمع مجتمعاً قویماً یستحقّ الدفاع والتضحیة(المصدر نفسه: ١٠٥). ومن أهمّ أسباب الفساد نستطیع الإشارة إلی الفقر وفقدان الثقافة والقیم التی تؤثر علی الصفات والنزوات الشخصیة، ونظام الحکم. لا شکّ أن الفقر یمکن أن یقود إلی الفساد کما یمکن أن یعمق ویرسخ الفساد فی المجتمع(الخواجا، ٢٠١٢م: ٦).

هناک فی هذه الرّوایة عبارات تدلّ علی هذه الظاهرة فی حیاة «حمیدة» ومنها أقوال أتراب «حمیدة» حول فقدانها «لاندری شیئاً علی وجه الیقین، إلا ما قلته لأمّها حین جاءتنی یوم اختفائها تسأل عنها، من أنّنا رأیناها مرات بصحبة أفندی یسیران معاً فی «الموسکی» فسألها مدهشاً: «أرأیتها بصحبة أفندی؟!» ثمّ خاطب نفسَه قائلاً: «ربّاه کیف أعقل هذا! أهربت حمیدةُ حقاً مع رجلٍ؟!»(محفوظ، لا تا: ٢٥٦). ومثل هذه العبارت هی عباراتٌ خاطبَ «عبّاسُ» «حمیدةَ» بها: «کاذبة فاجرة ... أغواک فاجر مثلک ففررتِ معه، وترکتِ وراءک فی حیّک أسوأ الذکری، وها هو الفجر السافر یطالعنی فی وجهک وتبرّجک الفاضح»(المصدر نفسه: ٢٨٧)، ثمّ أضاف «ماذا صنعتِ بنفسک؟ کیف انقلبت إلی هذا المصیر الأسود؟ أی شؤم أعمی بصیرتک؟ ومن یکون (وهنا استغلظ صوته) ذلک المجرم الذی خطفک مِن حیاتک الطاهرة و طرحک فی مزبلة الدعارة؟»(محفوظ، لا تا: ٢٨٨) وکذلک «لا أستطیع أن أنسی أنّک فررتِ معه ولا أنّهم رأوک تسیرین فی صحبته»(المصدر نفسه: ٢٩١)، نری فی هذه العبارات مدی تعصّب «عبّاس الحلو» ویتّضح کلّ الوضوح أنّه أشدّ أهل الزقاق حزناً وغضباً بسبب فقدان «حمیدة» وارتکابها هذا العمل

القبيح، ومن مظاهر صدى هذا الفساد هو قول السّيّد «رضوان الحسينى» حول ما مضى بالزقاق: «ثمّ كان من أمر زقاقنا ما تعلمون، فشدّ الشيطان على أعين رجلين وفتاة مِن جيراننا، أمّا الرجلان فقادهما إلى قبر ينشبانه وغادرهما فى السجن؛ وأمّا الفتاة فاستدرجها إلى هارية الشهوات وغاص بها فى حماة الرذيلة»(المصدر نفسه: ٢٩٧ – ٢٩٨). وأيضاً عندما أخبر «حسين كرشة» أباه بقتل «عبّاس الحلو» وأحوال «حميدة» التى كانت تسهم فى هذا العمل بهذه العبارة: «وقد مضى بى ليُرينى الحلنة التى وعدته إيّاها الفتاة الشريرة، وإنّا نمرّ ببابها إذ رأى العاهرة تعربد فى جمع مِن الجنود»(المصدر نفسه: ١١٠). فنشاهد كيف انبعثت شعورُ أهل الزقاق من هذا الفسادحيث لم يستطيعوا أن ينسوا هذا الأمر فحزنوا كثيراً وتكلّموا عن هذه الظاهرة وعدّوها السبب الرئيس فى قتل رجلين من أهل الزقاق، فكلّ هذه الجملات تدلّ أحسن الدلالة على مدى اهتمام أهل الزقاق بقبح أعمال «حميدة».

وفى النهاية يأتى *نجيب محفوظ* بكلامٍ يدلّ على نتيجة هذا الطموح السيء فى «حميدة» حيث أذعنت نفسُها بهذه الظاهرة القبيحة قائلةً: «لستُ إلّا شقيّة يا عبّاس! لا تؤاخذنى على سوء قولى، فقد أفقدنى الشقاءُ وعيى. إنّكم جميعاً ترونني عاهرة فاجرة، والحقّ إنّى شقيّة بائسة. خدعنى الشيطانُ الرّجيم كما دعوتُه بحقّ، لا أدرى كيف أذعنتُ إليه ومع ذلك فلستُ أنتحل لنفسى عذراً ولا أطمع أن أسألك العفو؛ فإنّى أعلم أنّى مُذنبة وها أنا ذى أدفع ثمن جريرتى النكراء. أعفُ عن غضبى الذى أهاجته كلماتك العادلة، وأبغضنى واحتقرنى ما شاءت لك نفسك الطاهرة الكريمة، واشمت بى فلستُ فى حاضرى إلّا ألعوبة رخيصة فى يد من لا يرحم»(المصدر نفسه: ٢٩٠)، وفى هذه الأقوال التى تُعتَبر إذعان «حميدةَ» بعمله الفضيح نرى ندامتها العميقة تجاه «عبّاس» وخيانتها إيّاه ولعلّ أصدق قول على أية ظاهرة هو إذعان الشخص بعمله.

٦.الفقر

هو من أخطر القضايا وأكثرها تعقيداً وقياساً وقراءةً، فالعديد من الثورات الاجتماعيّة والسياسيّة الكبرى التى كان الفقر أحد أسبابها الرئيسة. وهو مدخل كثيرين إلى الانحراف كما هو الدّافع وراء العديد مِن جرائم السرقة والقتل والاغتصاب والمخدّرات(محفوظ،

۱۹۹۶م: ۱۸۴)، وعندما نتحدث عن الفقر ليس مرادنا محدودية الدخل فحسب بل يتعدى ذلک إلى ضعف وسائل الحماية الاجتماعية التی تستهدف الأمن الاجتماعی لمستقبل ذوی الدخل المحدود أو المعدوم(الخواجا، ۲۰۱۲م: ۷). فتتبرز مظاهر الفقر فی شخصيّة «حميدة» لاسيّما عند توصيفها عند خروجها مِن البيت فی العبارات التالية: «وقطعت الزقاق فی عناية بمشيتها وهيئتها لأنّها تعلم أنّ أعيناً تتبعها متفحصة ثاقبة، عينی السيّد سليم علوان صاحب الوكالة، وعينی عباس الحلو الحلّاق، ولم تكن تفاهة ثيابها لتغيب عنها، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رقّ نعلاه»(محفوظ، لا تا: ۴۲- ۴۳)، وكذلک عندما يصرّح المؤلف بما يدور فی بال «حميدة» قائلاً: «ولكنّها أحجمت بادئ الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليومية لرقّة ثوبها»(محفوظ، لا تا: ۱۶۹). كما نقرأ فی موضع آخر: «ولكن آه لو كانت تملک ملاءة حسنة أو شبشباً جديداً؟!»(المصدر نفسه: ۱۷۰). وأيضاً إذا خاطبه الأفندی «فرج ابراهيم» مستخفّاً بها: «كيف تسيرين بملاءتک بين هولاء الفتيات! أين هنّ منک! أميرة فی ملاءة، ورعية ترفل فی الثياب الجديدة»(المصدر نفسه: ۱۷۸)، و«كيف يرفلن فی الثياب الزاهية بينا تلتحفين أنتِ فی هذه الملاءة السوداء»(المصدر نفسه: ۱۹۹). يستطيع القارئ أن يصوّر شخصية «حميدة» وملابسها واضحاً، وهذه العبارات كلّها تدلّ على قدرة الكاتب على تجسيم هذه الحالة، فإذا تأمّلنا فی هذه النماذج نری بأنّ «حميدة» كانت تعيشُ فی أدنی درجةٍ من الحياة ولم تملک إلّا ضئيلاً من مُتعة الحياةِ حيث كانت تخجل أن تظهر أمام النّاس ولكن حرّضها طُموحُها الكثير إلى الخروج من البيت.

۷.الانتقاد عن ظروف الحياة

الانتقاد فی الحقيقة عملٌ إيجابی فإذا توفّرت فيه المقوّمات الصحيحة يكتشف مواضع الضعف، ويضع الإصبع على العيب على أنّ ذلک كلّه يجب أن‌يتمّ فی ظروف مناسبة تفعل فعلها الإيجابی، وإنّ ما يضعف العلاقات فی الأسرة ويعرضها للتفكّک هو الانتقاد المرّ وتحطيم روح الثقة بين أعضاء الأسرة. هناک فی مواضع عديدة من هذه الرّواية عبارات تدلّ على انتقاد «حميدة» عن موقفها الاجتماعی، وبهذه الأقوال تسدل السّتار عمّا تعانی منه الفتاة المصرية فی ذلک المجتمع ذی الطابع الطبقی، فمنها ما أوردتها «حميدة»

منتقدةً مِن ظروف حياتها والعيش فی ذلک الزقاق إذا کانت تُجیب أمّها التی تستحسن أهل الزقاق بقولها: «لا تسلقی أهل الزقاق بلسانک، إنّ أهله سادة الدنیا»(محفوظ، لا تا: ٢٩) فقالت «حمیدة»: «سادة دنیاک أنتِ، کلّهم کعَدَمهم، اللهم إلّا واحداً به رمق جعلتموه أخی»(المصدر نفسه: ٣٠)، وفی موضع آخر غمغمت بلهجة تنمّ عن الإعجاب: «آه یا خسارتک یا حمیدة، لماذا توجدین فی هذا الزقاق؟! ولماذا کانت أمّک هذه المرأة التی لاتمیّز بین التبر والتراب؟!» وکذلک عندما قارَنَت نفسها مع أترابها مِن بنات المشغل خاطبَت أمَّها منتقدة: «آه لو رایتِ بنات المشغل! آه لو رأیتِ الیهودیات العاملات، کلّهن یرفلن فی الثیاب الجمیلة، أجَل ما قیمةُ الدنیا إذا لم نَرتَدِ ما نُحبّ؟!»(المصدر نفسه: ٣١)؛ فی هذین المثالین تخاطبُ «حمیدةُ» أمَّها وتشکو من العیش فی ذلک الزقاق الذی یتضمّن کثیراً من الأهل الذین لایعرفون شیئاً من التقدّم ولایبالون بزخرف الحیاة کما ترید «حمیدةُ»، وفی موضع آخر یصفها *نجیب محفوظ* هکذا: «ثمّ تراجعت فجأة کأنّها ملت موقفها، وعادت إلی المرآة ملقیة إلیها نظراً فاحصاً، وتنهّدت وهی تقول: یا خسارتک یا حمیدة»(المصدر نفسه: ٣٢) وکذلک عندما خاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة: «هذه آخرُ طبخةٍ فی هذا البیت، وربّما کانت آخرَ طبخةٍ فی حیاتی! تری متی آکلُ العدسَ مرةً أخری؟!» ولم تکن تستکره العدس ولکنّها کانت تعلم أنّه غذاء الفقراء وشعار مائدتهم، کذلک لم تکن تعلم شیئاً عن طعام الأغنیاء ألا أنّه لحم ولحم ولحم»(المصدر نفسه: ٢١٧).

وفی هذه الأمثلة الأخیرة تنتقد ظروفَ حیاتها مخاطبةً نفسَها وربّما یرجع السببُ الرئیس فی أنّ «حمیدةَ» خاطبت نفسَها لتشکو من ظروف الحیاة إلی أنّه لم یکن فی ذلک الزقاق أحدٌ یُدرکُ تلک الفتاةَ الفقیرةَ الطامحةَ وتطلّباتها.

٨.تمرّد حمیدة وطموحها

قلّما نجد مظاهر الفساد فی المجتمع إلّا أن تکون لها جذورٌ فی الطموح الشدید إلی الدنیا ونعماتها، و الإنسان الذی یطمع فی الحیاة المادیّةِ شدیداً، فیُبیدُ مکارمَ الأخلاقِ ویُمیتُ شرافةَ نفسه؛ إذ لا یُبالی إلّا بغرائز نفسه وإرضائها(بابا زاده، ١٣٧۴: ٢/ ۵٠٣). ومن دوافع هذا الطموح الشدید نستطیع الإشارة إلی الحرص، الجهل ولاسیّما الحرمان عن

رفهية العيش الذى لا يكاد يحوّل إلى عقدة نفسية فى الشخص(المصدر نفسه: ٥١١). كما تكون الحال فى هذه الرّواية حيث إنّ «حميدة» هى المرأة الوحيدة فـى «زقـاق المـدق» التى تخرج عن تقاليد الزقاق وتشـرّد بعيـداً عـن قطـاع كـلّ النسـاء العـاقلات، الزوجـات والأمهات والفتيات العاديات اللواتى يعشن فى خضـوع ورضـا بحـالهنّ فـى ظـلّ التقاليـد المتعارف عليها فى ذلک الحىّ الشعبى الفقير فى قـاهرة الأربعينـات. جعـل المؤلّـف مِـن «حميدة»، المرآة التى تعكس الصراع الدائر داخل نفوس أهل الزقـاق؛ فالقـارئ يـرى مـن خلال «حميدة» مرارة الفقر والعوز الذى يعيش فيه الجميع(العشماوى، ٢٠٠٥م: ٣٤).

نعم! كانت «حميدة» تخترق العادات والتقاليد فتتطلع من نافذتها فترى العالم يـركض إلى الأمام إلّا هى؛ إذ تري نفسها حشـرة قـذرة ملتصـقة بهـذا الزقـاق فيـدفعها طموحهـا للتمرّد. فكانت لا ترى فى فقر «عبّاس الحلو» سـوى سلسـلة مـن المشـاكل والإحباطـات بصورها المرعبة التى تبحث لنفسها عن مخرج ومهرب منها سيّما وأن كيانهـا كلـه تمـلأه رغبة عارمة للمال والجاه والثياب الفاخرة والحلى النفيسة. فإنّ الطموح إلى الحياة المليئـة بالزخارف نزعةٌ استأصلت فى نفس حميدة منذ صغرها، وهذا يعود إلـى عيشـها فـى ذلک الزقاق عيشاً ضنكاً ولم يكن باستطاعته النيل إلى ما تتمنّـى مِـن الظـروف الماديـة وهـذه الظاهرة تبرز تماماً فى أعمالها وأقوالها كقولها فى خطاب «عبّاس الحلو» عندما كـان علـى شرف السفر للاتّصال بشرطة الإنجليز: سكت «عبّاس الحلو» لحظـة متنهـدً، ثـمّ اسـتطرد: «أسافر باسمه، وبفضله أعود وقد ربحتُ كثيراً. فتمتمت(حميدةُ) وهى لا تدرى: كثيـراً إن شاء الله»(محفوظ، لاتا: ١١٥) وأيضاً عندما يصف أعمالها طوال حبّهـا لــ «عبّـاس الحلـو» قائلاً: «ولكم تساءلت (نفسها): ترى هل تظفر واحدة مِن صويحباتها بنـات المشـغل بخيـرٍ منه؟ وتعمّدت أن تسير معه وقتَ ظهورهنّ، وجعلت تسترق النظر إلى أعيـنهنّ الفاحصـة وكأنّها ارتاحت إلى ما تركه فيهنّ مِن أثر. وقد سألنها يوماً عن الشباب «الذى رأينـه معـاً» فقالت: «خطيبى صاحب صالون حلاقة!» وقالت لنفسها: أن أية واحدة منهنّ لتعـد نفسـها سعيدة إذا خطبها صبة قهوة أو صبى حداد، وهذا صاحب دكـان، أوسـطى وأفنـدى أيضـاً! كانت مشغولة أبداً بالموازنة والاختيار والتفكير»(المصدر نفسه: ١١١). وفى هـذه العبـارات نستطيع أن نرى مدى طموحها إلى رفهية الحياة حيث كانت تمنّـى أن تشـاهدها أترابهـا حين مصاحبها «عبّاس الحلو» حتّى تفخر عليهنّ ولعلّ السبب الرئيس الذى شجّعاه علـى

الكلّم مع «عبّاس الحلو» هو ما أخبرها عنها «عبّاس» حول سفره واتصاله بشرطة الإنجليز وهذا السفر هو الذى خطّطه «عبّاس» للحصول على ما يُرضى نفسَ «حميدة» من النقـود وزخرف العيش.

نتيجة البحث

تناول *نجيب محفوظ* فى رواية «زقاق المدق» كثيراً مِن المعضلات الاجتماعيّة لاسيّما تلك القضايا التى لها صلة وثيقة بحياة الطبقة المعوزة خاصّة النساء الفقيرات وهذا تعميقـاً لوعى المجتمع بخطورة التخلّف الاجتماعى وغياب القيم. هناک لهذه المسائل الاجتماعيـة دورٌ هامٌ فى اشتهاره فى هذه الرواية والكشف عمّا فيها مـن المعضـلات الاجتماعيّـة التـى وقعت تحت وطأتها «حميدة». تعود أهمية هذه الرّوايـة فـى مضـمونها الإنسـانى وغايتهـا السّامية التى كانت تتّطلع إليها من خلال طموح هـذه الشخصـيّة وتمرّدهـا الـذى كانـت الحرب بآثارهـا الماديـة والاجتماعيّـة أوّل محـرک لمأسـاة الزقـاق والعديـد مِـن الجـرائم والانحرافات، وهذا ما أدّى بـ «حميدة» إلى الانحراف، فدراسة هذه الرواية من منظور علـم اجتماع المحتوى يساعِد علماء الاجتماع لإصلاح المجتمع وخلوّه مِن الفساد والانحراف.

وهى كما أرادها *نجيب محفوظ* تمثّلت طليعةَ ثورةٍ فى المجتمع المصـرى علـى القـيم والعادات والتقاليد التى تكبل الإنسان المصرى وتبعده عـن الحريـة والتجديـد الحضـارى، لكن خروج «حميدة» لم يكن محصناً؛ إذ وقعت فى دائرة أخرى أقسى وأمـرّ وهـى دائـرة الانحراف، وهذا أمر يكشف عن الأزمة السياسيّة والاقتصاديّة التـى كانـت تسـود المجتمـع المصرى ومن ضحايا هذه الأزمة هى «حميدة» التى استخدمها *نجيـب محفـوظ* كنمـوذج نسائى قامَ بدورٍ بارزٍ فى انعكاس المعضلات الاجتماعيّـة السـائدة فـى المجتمـع المصـرى آنذاک المتمثّلة فى شخصيّة هذه الفتاة التى يتجلّى مضمون الرواية فى أعمالها ومصـيرها؛ فهى التى كانت تميل إلى الثروة وزُخرُف الحياة والحصول على الرفهيّة بأىِّ نحوٍ كان حيثُ كأنّها عَمَت عيونُها عن الطريق السليم ولـم يكـن السـبب إلّـا ظـروف الحيـاة وهـى الفقـرُ والحِرمانُ الغالِبُ على حياتِها إضافةً إلى طُموحِها الكثير إلى رغد العيش وهذا أمرٌ طبيعـى غالبٌ على حياة كثيرٍ مِن الفتيـات الفقيـرات فـى الطبقـات المعـوزة والبُلـدان المحرومـة فاستطاعت شخصيّة «حميدة» انعكاس أزماتهنّ فى ذلک المجتمع، ولكن علينـا الإذعـان

بأنّ العامل الرئیس فی الکشف عن هذه المعضلات التـی أدّت إلـی سـقوطها فـی مهالـک السوء والفساد والفحشاء هو دراسة هذه الروایة وفق مـنهج علـم اجتمـاع المحتـوی الـذی یفحص الآثار الأدبیة مِن حیث مضامینها بغضّ النظر عن أسالیبها الفنّیة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

أبوهيف، عبدالله. ١٩٩٦م، **اتجاهات النقد الروائی فی سورية**، دمشق: اتّحاد الكتّاب العرب.

أحمد فراج. ٢٠٠٣م، **الثقافة والعولمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة**، دون مكان: كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الذلتا.

آلن اس. میلوارد. ١٣٧٥ش، **جنگ، اقتصاد و جامعه**، ترجمه حسین میرجلیلی، تهران: انتشارات دانشگاه امام حسین(ع).

بابازاده، علی اکبر. ١٣٧۴ش، **زمینه‌های فساد در جامعه و راه درمان**، دوره دو جلدی، قم: انتشارات قدس.

بدوی، محمّد. ٢٠٠٦م، **الرّواية الحديثة فی مصر**، برعاية سوزان مبارک، قاهره: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

زالا مانسکی، هنری. ١٣٨١ش، **بررسی محتواها، درآمدی بر جامعه‌شناسی ادبیات**، چاپ پنجم، تهران: نشر چشمه.

سويدان، سامی. ٢٠٠٦م، **المتاهة والتمويه فی الرواية العربية**، بيروت: دار الآداب.

صابر، نجوی. ١٩٩٠م، **النقد الأخلاقی أصوله وتطبيقاته**، بيروت: دار العلوم العربية.

عبد المعطی، عبدالباسط. ١٩٨١م، **اتجاهات نظرية فی علم الاجتماع**، الكويت: عالم المعرفة.

عسگری حسنک لو، عسگر. ١٣٨٧ش، **نقد اجتماعی رمان معاصر فارسی**، تهران: فرزان روز.

العشماوی، فوزية. ٢٠٠٥م، **المرأة فی أدب نجيب محفوظ**، برعاية سوزان مبارک، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

عودة، محمود. دون تاريخ، **أسس علم الاجتماع**، بيروت: دار النهضة العربية.

غنيمی هلال، محمّد. ١٩٩٧م، **النقد الأدبی الحديث**، القاهرة: نهضة مصر.

غولدمان، لوسيان. ١٩٩٣م، **مقدّمات فی سوسيولوجية الرّواية**، ترجمة بدرالدين عرودكی، سورية: دار الحوار للنّشر والتوزيع.

الغيطانی، جمال. ١٩٨٠م، **نجيب محفوظ يتذكّر**، بيروت: دار المسيرة.

فريجات، عادل. ٢٠٠٠م، **مرايا الرّواية(دراسات تطبيقية فی الفنّ الروائی)**، دمشق: اتّحاد الكتّاب العرب.

قصّاب، وليد ابراهيم. ٢٠٠٩م، **مناهج النقد الأدبی الحديث(رؤية إسلامية)**، الطّبعة الثّانية، دمشق: دار الفكر.

کاظمی پور، عبدالمحمّد. ۱۳۸۲ش، **باورها و رفتارهای مذهبی در ایران**، تهران: انتشارات طرح ملّی وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامی.
گریس، ویلیام جوزف. ۱۳۸۱ش، **ادبیات و بازتاب آن**، مترجم بهروز عزبدفتری، تبریز: انتشارات فروزش.
لونتال، لئو. ۱۳۸۶ش، **رویکرد انتقادی در جامعه‌شناسی**، ترجمه محمّدرضا شادرو، تهران: نشر نی.
محفوظ، نجیب. دون تاریخ، **زقاق المدق**، القاهرة: مکتبة مصر.
محفوظ، نجیب. ۱۹۹۶م، **حول التّدیّن والتّطرّف**، القاهرة: الدار المصریة اللبنانیة.
محمّد، عزیزة محروس وآخرون. ۲۰۰۸-۲۰۰۹م، **أسباب العنف وآثاره علی المجتمع المصری**، القاهرة: جامعة قاهرة.
مرتاض، عبدالملک. ۱۹۹۸م، **فی نظریة الرّوایة(بحث فی تقنیات السرد)**، الکویت: عالم المعرفة.
میرعابدینی، حسن. ۱۳۸۰ش، **صد سال داستان نویسی ایران**(دوره سه جلدی)، چاپ دوّم، تهران: نشر چشمه.
هانری میشل. ۱۳۷۰ش، **جنگ جهانی دوّم**، ترجمه عبّاس آگاهی، مشهد: انتشارات آستان قدس رضوی.

المقالات

الخواجا، حمدی. ۲۰۱۲م، «**أثر الفساد علی الجوانب الاقتصادیة والاجتماعیة**»، ورقة عمل مقدمة فی الورشة التدریبیة بعنوان "الموروث الدینی ودوره فی محاربة الفساد"، فلسطین، صص ۱- ۱۳.
رحمدل، غلامرضا و سهیلا فرهنگی. پاییز ۱۳۸۷ش، «**پژوهش‌های میان رشته‌ای در مطالعات ادب فارسی**»، نشریه پژوهش‌های ادبی، شماره ۲۱، صص ۲۳ - ۴۴.
ریحانی أردبیلی، عظیمة، وسیّد إبراهیم دیباجی. ربیع ۱۳۹۳ش، «**دراسة مقارنة بین روایتی «تنگسیر» و «اللص والکِلاب»**»، فصلیة دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامیة، فرع جیرفت، السنة السادسة، العدد الواحد والعشرون، صص ۴۱- ۶۲.
سالم، نادیة. سبتمبر۱۹۸۳م، «**إشکالیات استخدام تحلیل المضمون فی العلوم الاجتماعیة**»، مجلة العلوم الاجتماعیة، العدد الثالث، صص ۴۳ - ۶۰.
صیّادانی، علی وآخرون. ربیع ۱۳۹۴ش، «**إشکالیة خصائص النقد التأثّری فی الأدب العربی**»، دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامیة، فرع جیرفت، السنة السّابعة، العدد الخامس والعشرون، صص۳۳- ۴۴.

منتظری، آزاده ومحمّد خاقانی اصفهانی، ومنصورة زرکوب. صیف ١٣٩١ش، «**النقد الاجتماعی للأدب نشأته وتطوّره**»، فصلية إضاءات نقدية، العدد السادس، صص ١٥١ - ١٧٢.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی